ترجمة: كامل يوسف حسين

أمبرتو إكو: انبعاثُ الفاشيّة!

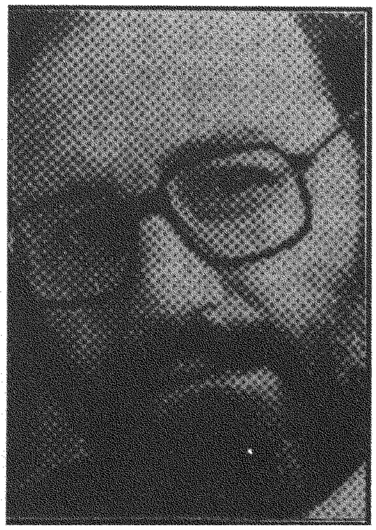

فيما يلي تعريبٌ لمقالةٍ جديدة للكاتب الإيطالي الشهير «امبرتو إكو» نَشَرها في جريدة **الغارديان** على حلقتين: الأولى في ١٢ آب ١٩٩٥ بعنوان «انبعاثُ الوحش القديم»، والثانية في ١٩ آب من العام نفسه وعنوانها «الإشارة بالإصبع إلى الفاشيين». وقد قام بتعريب الحلقتيْن الكاتب المصري كامل يوسف حسين. وإمبرتو إيكو (١٩٣٢–...) عالم لغة وسيميوطيقا وفيلسوف وصحافي وروائي. من أبرز أعماله **موضوعات: تقدير لِجويس** (١٩٥٨)، **المعمار الغائب** (١٩٦٨)، **أشكال المضمون** (١٩٧١)، **نظرية في السيميوطيقا** (١٩٧٥)، **العمل المفتوح** (١٩٦٢)، وروايته الشهيرة **اسم الوردة** (١٩٨١) التي بيع منها ما يزيد على عشرة ملايين نسخة، **وبندول فوكو** (١٩٨٩). وأما أحدث روايةٍ له فهي: **جزيرة اليوم الذي مضى**. وقد ترك بصمة قوية على الدراسات السيميوطيقية الأوروبية، وأثار اهتماماً كبيراً بالدراسات المتعلّقة بالقرون الوسطى. وعلى الصعيد السياسي يُعَدُّ من المناصرين المتحمسين لأوروبا الموحدة، في مواجهة النزعات الداعية إلى التجزئة.

في هذا المقال، الذي ربما كان من أكثر المقالات أهميّةً لهذا العام، يركز «إكو» على بعديْن: أوّلهما رسم خارطة لكيفية صعود الفاشية في إيطاليا وإيضاح خلفية تضاريس هذه الخارطة. وثانيهما التأكيد على ضرورة الحذر، تحسّباً لعودة الفاشية في أشكال مختلفة، وإن لم تقل خطورة عن سابقتها. والمقال يحتاج منّا نحن العرب إلى أكثر من قراءة واعية (هـ.م.)

في العام ١٩٤٢، حين كنتُ في العاشرة من عمري، مُنحتُ جائزة لودي الإقليمية الأولى للصغار (وهي جائزة تُمنح في مسابقة اختيارية - إجبارية لصغار الفاشيين الإيطاليين، أيْ: لكلّ صغار إيطاليا). وقد فصّلتُ القولَ ببراعة خطابيةٍ آنذاك في موضوع «هل ينبغي أن نموت من أجل مجد موسوليني وقدر إيطاليا الخالد؟»؛ وكان ردّي إيجابياً؛ فقد كنت فتى ذكيّاً [!]

أمضيتُ عاميْن من أعوامي الأولى وسط ذوي القمصان السّوداء، والفاشيين، والجمهوريّين، و«الأنصار»، نتبادل إطلاق النّار. وتعلّمتُ كيف اتجنّبُ طلقاتِ الرّصاص، وكان ذلك تدريباً جيّداً.

في إبريل ١٩٤٥ سيطر «الأنصار» على ميلانو، وبعد ذلك بيومين وصلوا إلى البلدة الصغيرة التي كنتُ اقيم فيها آنذاك. وكانت تلك لحظةً من لحظات الفرح، فازدحم الميدانُ الرئيسي بأناس يغنّون ويلوّحون بالأعلام، منادين بأصوات عالية اسمَ «ميمو» زعيم الأنصار في تلك المنطقة (وقد انضمّ ميمو، وهو من قادة الكارابنييري السابقين، فيما بعد إلى مؤيّدي الجنرال بادوجليو، خَليفةِ موسوليني، وفقد إحدى ساقيه خلال أحد الاشتباكات الأولى مع من تبقّى من قوّات موسوليني). أطلّ ميمو من شرفة البلديّة، وبدا شاحباً وهو متكئٌ على عكّازه، وحاول بإحدى يديه تهدئةَ الجمع. كنت أنتظر خطابه، لأنّ طفولتي بأسرها قد طُبِعَتْ بطابع الخُطَب التاريخية التي كان موسوليني يلقيها، وكانت أبرز فقرات خطبه تُحفظ عن ظهر قلب في المدرسة.

تحدّث ميمو بصوت أجشّ، لا يكاد يُسْمَع. فقال: «أيّها المواطنون، أيّها الأصدقاء، بعد هذه التضحيات المؤلمة العديدة... ها نحن. المجدُ للذين سقطوا من أجل الحرية!». وكان ذلك كلّ ما هنالك؛ فقد دلف ميمو إلى الداخل، وهتف الجمعُ هتافاً مدوّياً، ورفع الأنصار بنادقهم عالياً، وأطلقوا زخّاتٍ من الرصاص. وسارعنا، نحن الصبيةَ الصغارَ، إلى التقاط الظروف الفارغة، التي كانت شيئاً ثميناً بالنسبة لنا. غير أني تعلّمت أيضاً أنّ حرية الكلام تعني التحرُّر من الخطابة [أو الإطناب الخطابيّ].

بعد ذلك بأيام قلائل، شاهدتُ أوّلَ مجموعة من الجنود الأميركيين، وكانوا من الأميركيين الأفارقة. وكان أوّل «يانكي» التقيْتُهُ رجلاً أسودَ، يدعى جوزيف، وقد أطلعني على روائع ديك تريسي (Tracy)، وليل أبْنِرْ، وكانت كُتُبه، التي تضمّ رسوماً فكاهيّة، ذاتَ الوان مشرقةٍ ورائحة طيّبة.

نزل أحدُ الضبّاط [الأمريكيين] وهو الميجور أو الكابتن «مادي» Muddy، ضيفاً على فيلا عائلةٍ كانت ابنتاها زميلتين لي في المدرسة. وقد قابلته في حديقتهم، حيث مضت بعضُ السيّدات، وقد أحطْنَ بالكابتن «مادي»، يتحدثن بفرنسية متردّدة. وكان الكابتن «مادي» يُلمُّ بالفرنسية أيضاً. وهكذا فقد كانت صورتي الأولى عن المحرّرين الأميركيين- بعد رؤية الكثير من الوجوه الشاحبة.. من ذوي القمصان السوداء - هي صورةُ رجلٍ أسودَ مهذّبٍ في زيٍّ عسكري أصفرَ ضاربٍ إلى الخضرة يقول بالفرنسية: «نعم، شكراً كثيراً، يا سيّدتي، انا أيضاً أُحبّ الشمبانيا...». ومن سوء الحظّ أنّه لم تكن هناك شمبانيا، ولكنّ الكابتن «مادي» قدّم لي أوّلَ قطعةٍ تقعُ عيناي عليها من علكة «ريغلز» المنكّهة بالنعناع، وشرعتُ في مضغها طَوالَ النّهار. وفي الليل وضعتُ قطعة علكتي في كوب من الماء، لكي تكون طازجة في اليوم التالي.

وفي أيّار (مايو) سمعنا أنّ الحرب وضعتْ أوزارَها. منحني السلامُ شعوراً غريباً؛ وكان قد قيل لي إنّ الحرب الدائمة هي الوضعيةُ العاديّة للشاب الإيطالي. وفي الشهور التالية اكتشفتُ أنّ المقاومة لم تكن ظاهرةً محليّة فحسب، بل ظاهرة اوروبية أيضاً. وتعلّمتُ كلمات جديدة ومثيرة، مثل «شبكة سريّة» و«رجال مقاومة» و«جيش سرّي» و«Rotte Kapelle» و«جيتو وارسو». ورأيتُ الصوَر الأولى لِـ«محرقة اليهود [الهولوكوست]». وهكذا فهمتُ المعنى قبل أن أعرف الكلمة، وأدركتُ ما تمّ تحريرُنا منه.

في بلادي اليوم أناسٌ يتساءلون عمّا إذا كان للمقاومة [ضد الفاشية] تأثيرٌ عسكريّ حقيقيّ على مجرى الحرب [العالمية الثانية]. لكنّ هذا السؤال لا أهمية له بالنسبة لجيلي، فقد فهمنا على الفور المعنى الأخلاقيّ والنفسيّ للمقاومة. وكان موضعَ فخار أن نعرف أننا، نحن الأوروبيين، لم ننتظر التحرير في سلبيّة. وبالنسبة للشبّان الأميركيين الذين كانوا يدفعون دَمَهُمْ ثمناً لحريتنا المستعادة، فقد كان ذا مغزىً أن يعرفوا أنّ هناك وراء خطوط النار أوروبيين يؤدّون دَيْنَهم الخاصَ بهم مقدّماً.

وفي بلادي اليوم من يقولون إنّ أسطورة المقاومة [ضد الفاشية] هي كذبةُ شيوعيةٍ. من الصحيح أنّ الشيوعيين استغلّوا المقاومة وكأنّها ملكيّة خاصّة بهم، بعد أن لعبوا دوراً بارزاً فيها، ولكنني اتذكّر أنصاراً ذوي مناديل مختلفة الألوان. وكنت أمضي لياليَّ قرب المذياع، والنوافذ موصدة - وقد جعل الإظلام التام من

التّسامُحُ لا يعني النسيان، بل نحنُ هنا من أجلِ تَذكُّرِ ما حَدَثَ [أثناءَ الحرب]، ولكي نقولَ جادّين إنّ على الفاشيين ألاّ يعاودوا الكرّةَ!

هناك نازيّةٌ واحدة، ولكنّ «اللعبة الفاشيّة تُلْعَب بأشكال متعدّدة دون أن يتغيَّرَ اسم اللعبة!

الفراغ الصغير المحيط بالجهاز هالةً فريدة مضيئة – أُصغي إلى الرسائل التي يبثّها صوتُ لندن إلى الأنصار. كانت رسائلَ مشفّرة وشعريّةً في الوقت نفسه («الشمس تُشرق أيضاً»، «الزهور ستتفتح»). وكانت في معظمها «رسائلَ عبر فرانشي»؛ وقد همس لي أحدُهم بأنّ فرانشي هو زعيم أقوى شبكة أنصار سريّة في شمالي غربي إيطاليا، وأنّه رجل يتمتّع بشجاعة أسطورية. فأصبح فرانشي بطلي. وكان فرانشي (واسمه الحقيقي إدجاردو سونيو) ملكيّاً، وشديدَ العداء للشيوعيين إلى حدّ انضمامه بعد الحرب إلى الجماعات المغرقة في اليمينية، واتّهامِهِ بالضلوع في مشروع انقلابٍ رجعيّ. ولكن من تراه يهتمّ بذلك؟

ولايزال سونيو بَطَلَ أحلام طفولتي، ولقد كان التحرير عملاً مشتركاً أنجزه أناسٌ تباينتْ الوانهم.

وفي بلادي اليومَ مَنْ يقول إنّ «حرب التحرير» كانت مرحلةَ انقسام مأساويةً، وإنّ كُلَّ ما نحتاج إليه هوَ مصالحةٌ وطنية، وأنّ ذكرى تلك السنوات الرهيبة ينبغي أنْ تُكبَتَ أوْ تُكْظَمَ أو تُنْسى بدفعها إلى منطقة اللاشعور. ولكنّ الدفع إلى اللاشعور يؤدّي إلى العصاب. وإذا كانت المصالحةُ تعني الحنوَّ والاحترامَ لكلّ أولئك الذين خاضوا حربَهم بأمانة وإخلاص، فإنّ التسامح لا يعني النسيان؛ بل إنّ بمقدوري الإقرار بأنّ أيخمان كان يؤمن برسالته إيماناً مخلصاً، ولكنني لا أستطيع القول: «حسنٌ، عُدْ مرّةً أخرى وقُمْ بأدائها مجدّداً». فنحن هنا من أجل تذكُّر ما حدث، ولكيْ نقول جادّين «إنّهمَ» لا ينبغي أن يفعلوا ذلك مجدّداً.

***

ولكنْ من ترانا نقصد بـ«إنّهم»؟

إذا كنا مانزال نفكّر في الحكومات الشموليّة التي حكمتْ أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية، فإنّ بمقدورنا في يُسْرِ القولَ بأنّه سيكون من العسير عليها أن تعاود الظهور بالشكل نفسه في ظروف تاريخية مختلفة. وإذا كانت فاشيةُ موسوليني تقوم على أساس فكرة الحاكم الكاريزميّ [وهو الذي يسحر الجماهير ويستهويهم بشخصه أو خطابته]، وعلى أساس النزعة المؤسسية، ويوتوبيا قَدَرِ روما الإمبراطوري، والمشيئة الإمبراطورية لاحتلال أراضٍ جديدة، ونزعةٍ قوميةٍ متفاقمة الحِدّة، وعلى مثالٍ أعلى ينظِّم أمّةً بكاملها في أفواج ترتدي قمصاناً سوداءَ [علامةَ الانضواء في الفاشية]، وعلى رفضِ الديمقراطية البرلمانية، وعلى العداءِ للسامية... فلستُ أجد صعوبةً في الإقرار بأنّه لا توجد اليومَ إلاّ علاقةٌ واهيةٌ للغاية بين الفاشيّة القديمة والتحالف الوطنيّ الإيطاليّ [المشكّل حديثاً] المولود من رَحِمِ الحزب الفاشيّ لمرحلة ما بعد الحرب، وهو حزب يميني على وجه اليقين. وفي الإطار نفسه، وعلى الرغم من أنني أشعر اليوم بالقلق الشديد حيال الحركاتِ شبهِ النازية التي ظهرت هنا وهناك في أرجاء أوروبا، بما في ذلك روسيا، فإنني لا أعتقد أنّ النازية في شكلها الأصلي توشك على معاودة الظهور كحركة على مستوى قوميّ شامل.

ومع ذلك، ورغم أنّ الأنظمة السياسية يمكن أن يُطاح بها، ويمكن أن تتعرّض الايديولوجياتُ للانتقاد والهجران، فإنّ وراء نظام مّا وإيديولوجيّته على الدوام أسلوباً في التفكير والإحساس، مجموعةً من العادات الثقافية، من الغرائز الغامضة، والدوافع التي يتعذّرُ فَهْمُها. فهل هناك شبحٌ آخر مايزال يجوب أنحاء أوروبا (ناهيك عن أجزاء أُخرى من العالم)؟

لقد قال يونسكو يوماً إنّ «الكلمات وحدها هي التي تهمّ، وأما الباقي فَمَحْضُ لَغْوٍ فارغ». وغالباً ما تكون العاداتُ اللغويّة أعراضاً مهمّة لمشاعر كامنة. وهكذا فإنّ ثمّة سؤالاً جديراً بالطّرح، وهو: لماذا لم تُعرّف المقاومةُ وحدها بأنّها نضال ضد الفاشيّة، بل شاركتها في ذلك التعريف الحربُ العالمية الثانية بصفةٍ عامةٍ وعلى امتداد العالم؟ إذا ما أعدتَ قراءةَ رواية هيمنجواي **لمن تُدَقّ الأجراسُ**، فسوف تكتشف أن روبرت جوردان يطابق ما بين أعدائه والفاشيين، حتى عندما يفكّر في الكتائبيين الإسبان. وأمّا فرانكلين ديلان روزفلت فإنّه يرى أنّ «انتصار الشعب الأميركي وحلفائه سيكون انتصاراً على الفاشية وعلى يد الطغيان الميتة التي تمثّلها». وخلال الحرب العالمية الثانية، كان الأميركيون الذين شاركوا في الحرب الإسبانية يوصفون بـ«المناهضين غير الناضجين للفاشية»، الأمر الذي يعني أنّ القتال ضد هتلر في الأربعينيات كان [في رأي الأمريكيين] واجباً أخلاقياً على كلّ أميركي صالح، في حين أن القتال ضد فرانكو في وقت جدّ مبكر في الثلاثينات لم تفُحْ منه رائحة طيّبةٌ لأنّ الشيوعيين ويساريين آخرين هم الذين شنّوه في المقام الأوّل. فلماذا كان تعبير من قبيل «خنزير فاشي» يُستخدم من قبل الأميركيين الجذريين بعد ذلك بثلاثين عاماً للإشارة إلى شرطيّ لا يقرّ عاداتهم في التدخين؟ لماذا لم يقولوا: خنزير كاجولاري، خنزير كتائبي، خنزير أوستاشي، خنزير كويسلنجي، خنزير نازيّ؟

يُعَدّ كتاب **كفاحي** لأدولف هتلر بياناً ببرنامج سياسي كامل. فقد

يشيد المجتمع العلميُّ بالاختلاف وسيلةً لتحسين المعرفة، وأما الفاشيّة فتعتبر الاختلافَ خيانةً وتسعى إلى تنمية الإجْماع!

كانت للنازية نظرية في العنصرية والشعب الآريّ المختار، ومفهوم محدّد عن الفنّ المتحلّل، وفلسفة لإرادة القوّة والإنسان الأعلى. وكانت النازية أيضاً وعلى نحو حاسم معاديةً للمسيحية؛ كانتْ حركة وثنيةً جديدةً، بينما كانت الصياغةُ الرسمية للماركسية السوفياتية التي تبنّاها ستالين ماديةً وملحدةً على نحو صارخ. وإذا كان المرء يقصد بالشمولية نظاماً يُخضع كلَّ تصرف من تصرفات الفرد للدولة وايديولوجيتها فإنّ النازية والستالينية قد كانتا أنظمة شموليةً حقاً.

من المؤكد أنّ الفاشية الإيطالية كانت دكتاتورية، ولكنها لم تكن شموليةً تماماً؛ ولم يكن ذلك بسبب اعتدالها، وإنّما بسبب الضعف الفلسفي لإيديولوجيتها. وخلافاً للرأي الشائع، فإنّ الفاشية في إيطاليا لم تكن لها فلسفة خاصة. وإنّ المقالَ عن الفاشية الذي وقّعه موسوليني في **تريكاني إنسايكلوبيديا**، قد كَتَبَهُ «جيوڤاني جنتايل» أو أَلْهَمَهُ إيّاه بشكل أساسيّ، ولكنّه عَكَسَ مفهوماً ينتمي إلى مرحلة متأخّرة من مرحلة تطوّر فكر هيجل هو مفهوم «الدولة المطلقة والأخلاقية» الذي لم يقدّرْ لموسوليني أن يفهمه تمامَ الفهم. لم تكن لموسوليني أيّةُ فلسفة، وإنّما كان لديه لغو خطابيٌّ فحسب. كان في البداية ناشطاً ملحداً، وعقب ذلك وَقّعَ «الميثاق» مع الكنيسة ورحّب بالمطارنة الذين باركوا التائبين من الفاشيين. ووفقاً لأسطورة محتملة فإنّه في سنواته الأولى التي كان فيها معادياً للإكليروس طلب من الله، لكي يُثْبِت وجوده، أنْ يصعقه في التوّ. وفيما بعد حرص موسوليني دائماً على أن يدرج اسم الله في خطبه. ولم يمانع في أن يُطلِق عليه الناسُ لقبَ «رجل العناية الإلهية».

كانت الفاشيةُ الإيطاليةُ أوّلَ دكتاتورية «يمينية» تسيطر على دولة أوروبية، وقد وجدت كلُّ الحركات المماثلة في نظام موسوليني فيما بعد نوعاً من النموذج الأصلي. فقد كانت الفاشية الإيطالية أوّلَ حركة تقوم بإقرار طقسٍ تعليميّ عسكريّ وفولكلور وطريقة في ارتداء الأزياء أكثر تأثيراً، بقمصانها السوداء، بكثير مِمّا سيُقدّر لـ«أرْمَاني» أو «بينيتون» أو «ڤرسَاتشي»[1] أن يتمتعوا به في أيّ يوم من الأيام. وقد ظهرت الحركاتُ الفاشية في الثلاثينيات فحسب، مع وجود «موزلي»[2] في بريطانيا، وكذلك ظهرت في لاتفيا، وإستونيا، وليتوانيا، وبولندا، والمجر، ورومانيا، وبلغاريا، واليونان، ويوغوسلافيا، وإسبانيا، والبرتغال، والنروج، بل وحتى في اميركا الجنوبية. وكانت الفاشيةُ الإيطالية هي التي أقنعت العديدَ من الزعماء الليبراليين الأوروبيين أنّ النظام الجديد ينفّذ إصلاحاً اجتماعياً مثيراً للاهتمام، وأنّه يقدّم بديلاً ثورياً ملطّفاً للتهديد الشيوعي.

ورغم ذلك فإنّ الأولوية التاريخية لا تبدو لي سبباً كافياً لإيضاح السرّ في أنّ كلمة «فاشية» قد أصبحت مجازاً مرسَلاً، أيْ كلمةً يمكن أن تُستخدم للإشارة إلى حركات شموليّة مختلفة. وليس ذلك راجعاً إلى أنّ الفاشية تتضمّن، في ذاتها، العناصرَ الجوهريّة لأيّ حركة شمولية لاحقة. وإنما الأمر على العكس من ذلك: فالفاشية لا جوهرَ لها، وإنّما هي شمولية مشوّشة، وتركيب «كولاج» مؤلّفٌ من أفكار فلسفية وسياسية مختلفة، وخليّةُ نحلٍ تضجُّ بالمتناقضات.

فهل بإمكان المرء أن يتصوّرَ حركةً شمولية قادرةً على أن تجمع [بين الثنائيات التالية]: الملكية والثورة، الجيش الملكي وميليشيا موسوليني الخاصة، منح الامتيازات للكنيسة وتعليم رسمي يُعلي من شأن العنف، سيطرة الدولة المطلقة وسوق حرّة؟

لقد ولد الحزْب الفاشيُّ متباهياً بأنّه جلب معه نظاماً ثورياً جديداً، ولكنّه تمّ تمويله في الواقع من قبل العناصرِ الأكثر محافظةً في صفوف ملّاك الأراضي، الذين توقّعوا منه ثورة مضادة. وكانت الفاشية في بدايتها جمهوريّةَ الطابع، لكنّها ظلّت على قيد الحياة عشرين عاماً وهي تعلن ولاءَها للعائلة المالكة، بينما كان «الدوتشي» (أي الزعيم الأعلى الذي لا منازعَ له) يضع ذراعه في ذراع الملك، ويخلع عليه أيضاً لقبَ الإمبراطور. ولكن عندما طرد الملكُ موسوليني في العام ١٩٤٣ عاود الحزبُ الظهور بعد ذلك بشهريْن بدعم من الألمان تحت شعار جمهورية «اجتماعية» social معيداً توظيفَ النصّ الثوري القديم الذي انطلق به، بعد أنْ تمّ إثراؤه بلمسات تكاد تكون من فكر اليَعَاقبة الفرنسيين.

لقد كان هناك فنّ معماريّ نازيّ واحدٌ، وفنٌّ [تشكيلي] نازيّ واحد. وإذا كان المهندسُ النازيُّ هو ألبرت شپير، فليس هناك المزيدُ من المجال لِـ«مايز ڤان دير روهِهْ»؛ وبالمثل، وفي ظل حكمِ ستالين، فإذا كان لامارك على حقٍ فلا مجال لِدَارْوِن. وفي إيطاليا كان هناك يقيناً مهندسون معماريون، ولكن قريباً من صروحهم التي تشبه الكوليزيوم كانت هناك العديد من المباني الجديدة التي

(١) تصاميمُ لأزياءٍ حديثةٍ عُرفتْ بأسماءِ مخترعيها (المترجم).
(٢) زعيم الاتحاد البريطاني للفاشيين بين ١٩٣٢ و١٩٤٠(م).

الفاشية «نخبويّة شعبيّة»، والشعبُ يُستدعى إلى المسرح ليقوم بـ«دور الشعب»!

تستمدّ وحيَها من العقلانيّة الحديثة التي قال بها غروبيوس.

ولم يكن هناك جدانوف فاشيّ يحدّد على نحو صارم خطّاً ثقافياً بعينه. ففي إيطاليا كانت هناك جائزتان فنيتان مهمّتان: وقد سيطر على جائزة «بريميو كريمونا» الفاشيُّ المتعصّبُ البعيدُ عن الثقافة «روبرتو فاريناتشي»، الذي شجّع الفنّ باعتباره دعايةً (وبمقدوري الآن تذكُّرُ لوحات تحمل عناوينَ من قبيل «الإصغاء عبر الراديو لخطاب الدوتشي» أو «حالاتٌ ذهنية تخلقها الفاشية»).

وأمّا جائزة «بريميو برجامو» فقد كانت تحت رعاية المثقّف والمتسامح إلى درجةٍ معقولة: جوسيبي بوتاي، الذي قام بحماية مفهوم «الفنّ من أجل الفن» والأنواع العديدةَ من الفنّ الطليعي التي حُظرت في ألمانيا باعتبارها فاسدةً ومنتسبةً سرّاً إلى الشيوعية. وكان الشاعر القوميّ هو دانونزيو، وهو غندورٌ كان حرياً به لو كان في ألمانيا أو روسيا أن يرسَل إلى فرقة الإعدام. [ولكنه] عُيِّن أميراً لشعراء النظام بسبب وطنيته وعبادته للبطولة، وهما أمران اختلطا في حقيقة الأمر بوفرة مع مؤثرات من نزعة التحلّل الفرنسية الخاصة بآخر القرن الماضي. (Fin-de-siècle decadence).

خُذِ المستقبلية، على سبيل المثال. فقد يظنّ المرء أنّها اعتُبرتْ حالةً من حالات الفن العابر للدول جنباً إلى جنب مع التعبيرية والتكعيبية والسوريالية. ولكن المستقبليّين الإيطاليين الأوائل كانوا قوميين؛ فحبّذوا المشاركة الإيطالية في الحرب العالمية الأولى لأسباب جمالية: وهكذا فقد احتفَوْا بالسرعة والعنف والمخاطرة، وكلّها بدت على نحو من الأنحاء مرتبطةً بالعبادة الفاشية للشباب. وبينما عرّفت الفاشيةُ نفسها بالتماهي مع الإمبراطورية الرومانية، وأعادت اكتشافَ التقاليد الريفية، فإنّ مارينتّي (الذي صرّح بأنّ السيّارة أكثر جمالاً من **انتصار ساموثراسه**، بلْ أراد أن يقتل ضوءَ القمر نفسَه) قد عُيِّن رغمَ ذلك عضواً بالأكاديمية الإيطالية... التي عاملت ضوءَ القمر باحترام بالغ[!].

وقد تلقّى كثيرٌ ممّن سيصبحونَ من أنصار الحزب الشيوعيّ ومثقّفيه في المستقبل تعليمَهم على يد اتحاد الطلاّب الجامعيين الفاشيين، الذي كان يُفترض أنّه مَهْدُ الثقافة الفاشية الجديدة. وأصبحت مثلُ هذه الأنديةُ نوعاً من بوتقة صهر ثقافية، حيث تمّ تداول الأفكار الجديدة دون أيّ ضبطٍ إيديولوجيّ. ولم يكن الأمر راجعاً إلى أنّ رجال الحزب كانوا متسامحين مع التفكير الجذريّ، وإنّما قلّةٌ منهم كانت تملك الأداة الفكرية للسيطرة عليه.

وخلال تلك السنوات العشرين، كان شعرُ «مونتال» وكتّاب آخرين مرتبطين بالمجموعة المعروفة باسم «إرميتيشي» ردَّ فعل على أسلوب النظام الطنّان. وقد سُمح لهؤلاء الشعراء بأن يطوّروا احتجاجهم الأدبي مِنْ داخل ما اعتُبِرَ برجاً عاجيّاً خاصّاً بهم. وقد كان المناخ السائد في أوساط شعراء «إرميتيشي» هو النقيض التامّ للعبادة الفاشية للتفاؤل والبطولة. وقد احتمل النظامُ انشقاقَهم الصارخَ (وإن لم يكن هذا الانشقاق قابلاً لأن يُدْرَكَ على صعيد المجتمع) لأنّ الفاشيين لم يبدوا اهتماماً بمثل هذه اللغة المُلْغزَة.

ولا يعني كلُّ هذا أنّ الفاشية الإيطالية كانت متسامحةً؛ فقد أُودع [المفكّر والقائد الشيوعي] چرامشي السجنَ إلى أن لَقِيَ حَتْفَهُ، وتمّ اغتيالُ قادة المعارضة جياكومو ماتيوتي والأخوين روسيللي، وأُلغيت الصحافةُ الحرّةُ، وحلّتِ النقاباتُ، وأُلزِمَ المنشقّون السياسيون بالإقامة الجبرية في جزر نائية، وغدت السلطة التشريعية مجرّدَ خيال، وأصدرت السلطةُ التنفيذيةُ (التي سيطرتْ على القضاء وعلى الإعلام الجماهيري) قوانينَ جديدة بصورة مباشرة، من بينها قوانين تقضي بالحفاظ على نقاء العرق (وهي الإيماءة الإيطالية الرسميةُ بمساندة ما سيُصبحُ «الهولوكوست»، أي محرقة اليهود).

هذه الصورة المتناقضة التي وصفتُها لم تكن نتيجةً للتسامح وإنما لافتقار النظام الفاشيّ إلى التماسك السياسيّ والايديولوجيّ. ولكن هذا الافتقار للتماسك كان متصلّباً جامداً في الوقت نفسه؛ كان فوضى منظّمة: فلقد كانت الفاشية على الصعيد الفلسفي بعيدةً عن الترابط، ولكنها من الناحية الشعوريّة كانت مثبتةً بقوة إلى أسس نموذجيّة أصليّة (archetypal).

وهكذا نأتي إلى النقطة الثانية التي أريد طرحها: فلقد كانت هناك نازية واحدة فقط. ولا يمكننا أن نصنّفَ نزعةَ فرانكو الكتائبية المفرطة في كاثوليكيتها بأنها نازية، لأنّ النازية وثنية بصفةٍ أساسية، ومتعدّدةُ الآلهة، ومناهضةٌ للمسيحية. ولكنّ اللعبة الفاشية يمكن أن تُلعب بأشكال متعدّدة، دون أن يتغيّر اسمُ اللعبة. فمفهوم الفاشية ليس مختلفاً عن مفهوم ڤيتچنْشتايْن عن اللعبة: ذلك أنّ اللعبة إما أن تكون تنافسية أو غيرَ تنافسية، وقد تثير اهتمامَ شخص أو أكثر، وتقتضي مهارةً خاصة أو لا تقتضيها، وتستخدم مالاً أو لا تستخدمه. والألعاب أنشطةٌ مختلفة لا تفصح إلاّ عن بعض «التشابه العائلي» على نحو ما عبّر ڤيتچنْشتايْن. تأمّل التعاقب التالي:

١	٢	٣	٤
أ ب ج	ب ج د	ج د هـ	د هـ و

اللعب بالأسلحة عند الفاشيين ممارسة قضيبية بديلة!

لنفترض أنّ هناك سلاسلَ من المجموعات السياسية، تتميّز فيها المجموعةُ الأولى بسِمات «أ ب ج»، وتتميّز المجموعةُ الثانية بسِمات «ب ج د»، وهكذا دواليك. المجموعة الثانية تشبه المجموعة الأولى، لأنهما تشتركان في سمتين اثنتيْن. وللسبب نفسه فإنّ المجموعة الثالثة شبيهة بالمجموعة الثانية، والمجموعة الرابعة شبيهة بالمجموعة الثالثة. لاحظ أنّ المجموعة الثالثة مشابهة أيضاً للمجموعة الأولى (فهما تشتركان في السمة «ج»). وأمّا الحالة الأكثر إثارة للفضول فتقدّمها المجموعةُ الرابعةُ: فمن الجليّ أنّها مشابهة للمجموعتين الثالثة والثانية، ولكنّها لا تشترك في أيّ سمةٍ مع المجموعة الأولى.. غير أنّه بسبب السلاسل غير المنقطعة من التشابهات المتناقِصة بين المجموعة الأولى والمجموعة الرابعة، يبقى هناك، من خلال نوع من التعْدية الوهميّة، شَبَهٌ عائلي بين المجموعة الرابعة والمجموعة الأولى.

لقد أصبحت الفاشيّةُ اصطلاحاً يخدم كلّ الأغراض لأنّ بمقدور المرء أن يُبعد عن النظام الفاشي سمةً أو أكثر ويظلّ قابلاً لأن يتعرّف المرءُ عليه باعتباره فاشياً: انتزع «الإمبريالية» من الفاشية، فيظل أمامك مع ذلك فرانكو وسالازار؛ انتزع «الكولونيالية» منها، ومع ذلك تظلّ أمامك فاشيةُ الأوستاش في البلقان؛ أَضِفْ إلى الفاشيّة الإيطالية نزعةً معاديةً متطرفةً للرأسمالية (التي لم تَفتِنْ موسوليني كثيراً قَطّ) وستجد أمامك إزرا پاوند. أَضِفْ عبادةَ الميثولوجية السلْتيّة وصوفيّة جريل Grail (الغريبة تماماً عن الفاشية الرسمية) وستجد أمامك واحداً من أكثر المعلّمين الفاشيين تمتّعاً بالإجلال، عنيْتُ: جوليوس إيڤولا.

ولكنْ بالرغم من هذا التشوّش، فإنني أعتقد أنّ من الممكن أن نضع قائمةً بالسماتِ المميّزة لما أميل إلى تسميته بالفاشية الأوروبية UR-Fascism، أو الفاشية الخالدة. وهذه السمات لا يمكن وضعُها في نظام؛ فالكثير منها تناقض إحداها الأخرى، كما أنّها أيضاً من السمّاتِ المميزة لأنواع أخرى من النزعات الطغيانية أو التطرفيّة. ولكن يكفي أن توجد إحدى هذه السمات للسماح للفاشية بأن تتجلّطَ حولها.

١ - أُولى سماتِ الفاشيّة الأوروبية هي عبادة التقاليد (cult of tradition). وبالطبع فإنّ النزعة التقليدية أقدمُ عهداً بكثير من الفاشية؛ فهي لم تكن مميّزة للفكر الكاثوليكي المضادّ للثورة بعد الثورة الفرنسية فحسب، وإنّما وُلدتْ في الفترة الهلينية المتأخرة ردَّ فعلٍ على العقلانيّة الإغريقيّة الكلاسيكيّة. وفي حوض البحر المتوسّط شرع أناسٌ ينتمون إلى أديان مختلفة (تَقَبَّلَ مَجْمَعُ آلهةِ روما معظمَها بتسامح) يحلمونَ بوحي تم تلقّيه في فجر التاريخ البشريّ. وبحسب الرؤية الصوفيّة التقليدية فإنّ هذا الوحي ظل وقتاً طويلاً محتجباً وراد نقاب لغاتٍ منسيّة في الحروف الهيروغليفية المصريّة وفي الأطلال السلْتية، وفي لفائف دياناتٍ في آسيا لا يُعرف الكثيرُ عنها.

وتعيّن أن تكون هذه الثقافة [التقليدية] الجديدة توفيقية. وليست النزعةُ التوفيقية (syncretism) على نحو ما يقول القاموسُ هي مجرّد «جَمْع لأشكالٍ مختلفةٍ من المعتقدات أو الممارسات»؛ فمثل هذا الجمع ينبغي أن يتحمّل المتناقضات. وتتضمّن كلُّ رسالة أصلية شظيّةً من الحكمة، وعندما يبدو أنّ هذه الرسالات تقول أشياء مختلفةً أو غيرَ متساوقةٍ فإنّ ذلك لا يرجع إلاّ لأنّها جميعها تشير على نحو رمزيّ إلى **الحقيقة الأولية ذاتها**.

ونتيجةً لذلك، فإنّه لا يمكن أن يكون هناك أيُّ تقدُّم للمعرفة [أو العِلْم]: فلقد تُلُفِّظَ بالحقيقة مرّةً وإلى الأبد، وليس بمقدورنا إلاّ أن نواصل تأويل رسالتها الغامضة.

وما على المرء إلاّ أنْ يلقي نظرةً على مخطّط كلّ حركة فاشيّة ليجد المفكّرين التقليديين البارزين. فقد غُذِّيت المعرفةُ الروحيّةُ النازيةُ بالعناصر التقليدية والتوفيقية والغيبية. وقد قام أكثرُ مصادر التنظير اليمينيّ الإيطالي الجديد تأثيراً، وهو جوليوس إيڤولا، بمزج «الكأس المقدسة»(1)، **ببروتوكولات حكماء صهيون**، والكيمياء القديمة بالإمبراطورية الرومانية والجرمانية المقدّسة. بل إنّ مجرّد أن يقوم اليمينُ الإيطاليّ، مؤخراً، بتوسيع آفاق مخطّطه الفكريّ - ليشمل أعمالَ دي مايستري، وجوينون، وجرامشي، لكي يُظهر انفتاحَهُ الذهنيّ، لَهُوَ برهان ساطع على النزعة التوفيقية.

إذا استعرضْتَ رفوفَ الكتب المصنّفة في المكتبات الأميركية بعنوان «العصر الجديد»، فإنّ بمقدورك أن تجد القدّيس أوغسطين نفسه، وهو الذي لم يكن - في حد علمي - فاشيّاً. ولكنّ الجمعَ بين القدّيس أوغسطين والأساطير المتعلّقة بالصخور التي تنحتها الريحُ هو عَرَض من أعراض الفاشية الأوروبية.

٢ - تفترض النزعةُ التقليدية

(١) هي الكأسُ التي شربَ منها المسيحُ في العشاء المقدّس، وراح المسيحيّون فيما بعد يجدّونَ في البحث عنها. (المترجم)

ضمناً رفضَ الحداثة (modern-ism)(*). وقد عبد الفاشيون والنازيون التكنولوجيا، بينما يرفضها المفكّرون التقليديون عادةً باعتبارها نفْياً للقيم الروحية التقليدية. غير أنّه على الرغم من تباهي النازية بمنجزاتها الصناعية، فإنّ إشادتها بالحداثة لم تكن إلاّ القشرة الخارجيّة لايديولوجية تقوم على أساس «الدم والتراب» (Blut and Bloden). وتم إخفاءُ رفض الفاشيّة للعالَم الحديث في إهاب ردٍّ بالبينةِ علىَ أسلوب الحياة الرأسمالية، ولكنه رفض في الأساس لروح ١٧٨٩ [أفكار الثورة الفرنسيّة] (ولروح ١٧٧٦ بالطبع ايضاً). وقد اعتبرت الفاشيّةُ التنويرَ وعصرَ العقل بدايةً للتردّي الحداثي. وبهذا المعنى يمكن تعريف الفاشية الأوروبيّة بأنّها نزعة لاعقلانية.

٣ – تعتمد اللاعقلانية كذلك على عبادة الفِعل (action) من أجل الفِعل. فلمّا كان الفعْلُ جميلاً في حدّ ذاته، فإنّه ينبغي القيامُ به قبل أيّ تفكير سابق أو من دون هذا التفكير أصلاً. ذلك أنّ التفكير هو شكل من أشكال الانْخِصاء أو العجز (emasculation)، وبالتالي فإنّ الثقافة موضعُ تشكك، بقدر ما ترتبط بالمواقف النقدية. وقد كان انعدامُ الثقة بالعالَم الثقافيّ على الدوام عَرَضاً من أعْراض الفاشية: بدءاً بالعبارة التالية المنسُوبة إلى جورنج «حين أسمع حديثاً في الثقافة أتحسّسُ مسدّسي»، وانتهاءً بالاستخدام المتواتر لتعابيرَ [معادية للمثقفين] مثل: «المثقفون المنحلّون» و«الرؤوس الهشّة» و«النفّاجون العاجزون» و«الجامعاتُ وكر [الشيوعيين] الحُمْر». والواقع أنّ المثقفين الفاشيين الرسميين قد عكفوا بشكل أساسي على مهاجمة الثقافة الحديثة والانتلجنتسيا الليبرالية لخيانتهما للقيم التقليدية.

اشتريت الجرائد بعد إلقاء القبض على موسوليني، فوجدت العناوينَ مختلفة!

٤ – ما من معتقدٍ توفيقيّ يمكن أن يصمد في مواجهة النقد التحليليّ: فالروح النقدية تقوم بعمليات التمييز، وتمييز الأشياء والأفكار هو مؤشّر من مؤشرات الحداثة. وفي إطار الثقافة الحداثية يشيدُ المجتمعُ العلميُّ بالاختلاف وسيلةً لتحسين المعرفة؛ وأمّا بالنسبة للفاشية الأوروبية فإنّ الاختلاف خيانة.

٥ – وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الاختلاف يُعَدُّ مؤشّراً على التنوّع [أو التعدّد]، في حين أنّ الفاشية الأوروبية تنمّي الإجماع (consensus) وتسعى إليه من خلال استغلال الخوف الطبيعي من الاختلاف وإثارته. وأوّل نداء تصدره حركةٌ فاشيةٌ أو فاشية قبل الأوان هو نداء ضدّ الغرباء المتقحّمين (intruders). وهكذا فإنّ الفاشية الأوروبية هي، بحكم تعريفها، عنصريّةٌ.

٦ – تنبع الفاشية الأوروبية من الإحباط الفرديّ أو الاجتماعي، وهذا هو السرُّ في أنّ إحدى السمات المميزة للفاشية التاريخية تمثّلت في اجتذابها الطبقة المتوسّطة المحبَطة، وهي طبقة تعاني من ازمة اقتصادية أو من شعور بالإذلال السياسي، ويخيفها ضغطُ المجموعات الاجتماعية الدنيا. وفي عصرنا، حين يُصبح «البروليتاريون» برجوازيةً صغيرةً (وتُستبعد البروليتاريا الرثّة lumpen من الساحة السياسية على نطاقٍ واسع)، فإنّ الفاشية في المستقبل سوف تجد جمهورها في هذه الأغلبية الجديدة.

٧ – لأناس يشعرون بالحرمان من هوية اجتماعية واضحة، تتوجّه الفاشيّةُ الأوروبيّة بالقول إنّ ميزتهم الوحيدة هي الميزة الأكثر شيوعاً: وهي أنّهم ولدوا في البلد نفسه. وهذا هو أصل القومية. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الوحيدين الذين بمقدورهم أن يقدِّموا هويةً للأمّة هم أعداؤها. وهكذا فإنّ في جذر السيكولوجيّة الفاشية الأوروبيّة هاجساً بمؤامرة، قد تكون دولية، تحاصر المجتمع، وأنّه لا بدّ للأتباع [الفاشيين] من أن يشعروا بأنّهم محاصرون، وأيسر سبيل لحلّ هذه المؤامرة هو مخاطبة رهاب الأجانب (xenophobia). ولكن المؤامرة [حسب المنطق الفاشي] ينبغي كذلك أن تأتي من الداخل: واليهود هم عادة أفضلُ هدف، لأنّهم يتمتعون بميزةِ كونهم في الداخل والخارج في آن. وفي الولايات المتحدة يمكن العثور على مثال بارز للهاجس المؤامراتيّ في «النظام العالمي الجديد» لبات روبرتسون، ولكن كما رأينا مؤخّراً فإنّ هناك الكثيرين غيره.

٨ – ينبغي على الأتباع أن يشعروا بالإذلال من جرّاء الثروة والقوّة الهائلتين اللتين يحظى بهما الأعداءُ. عندما كنتُ صبياً علّمُوني النظر إلى الإنجليز باعتبارهم الشعبَ الذي يتناول خمسَ وجبات يومياً؛ فهم يأكلون أكثرَ من الإيطاليين الفقراء المقتصدين في الطعام والشراب. وعلموني أنّ اليهودَ أثرياء، ويساعد الواحد منهم الآخر من خلال شبكة سريّة من المساعدات المتبادلة. غير أنّ الأتباع لا بدّ لهم من الاقتناع بأنّ بمقدورهم التغلّبَ على الأعداء. وهكذا فمن خلال تبديلٍ متواصلٍ لبؤرة التركيز الخطابيّة، يبدو الأعداءُ [في

(*) يتحدث «إكو» فيما يبدو، عن التحديث الصناعي والتكنولوجي MODERNIZATION والحداثة الفكرية MODERNISM وكأنهما أمرٌ واحدٌ؛ فاقتضى التنويه. (الآداب)

الخطاب الفاشيّ] شديدي القوّة وبالغي الضعف في آن. ولهذا فإنّ قَدَرَ الحكومات الفاشية أن تخسر الحروب لأنها بحكم بنيتها عاجزةٌ عن التقويم الموضوعي لقوّة الخصم.

٩ - ترى الفاشيةُ الأوروبية أنْ ليس هناك نضال من أجل الحياة، وإنما الحياة هي التي تُعاش من أجل النضال. وهكذا فإنّ النزعة السلمية تجارةٌ غيرُ مشروعةٍ مع الأعداء؛ وهي سيئة لأن الحياة حربٌ دائمة. غير إنّ هذا من شأنه أن يجلب عقدة المعركة الكبرى الفاصلة (the Armageddon complex): فلئن تَعيَّنَ إيقاعُ الهزيمة بالأعداء، فلا بدّ أن تكون هناك معركة نهائية، ستحظى الحركة [الفاشية] بعدها بالسيطرة على العالم... ولكن مثل هذا «الحلّ النهائي» يفترض ضِمناً عهداً آخر من السلام، عصراً ذهبياً يناقض مبدأ الحرب الدائمة. وعلى هذا، لم يقدِّرْ لأيّ زعيم فاشيّ قطّ أن ينجح في حلّ هذه المعضلة.

١٠ - النخبوية سمة مميّزة لأيّ إيديولوجيا رجعية، بقدر ما هي أرستقراطية؛ والنخبويّة الارستقراطية والعسكرية تفترض على نحو قاس ازدراءَ الضعاف. غير أنّ الفاشيةَ الأوروبية لا يمكن إلاّ أن تدعو إلى نخبويةٍ شعبيّة [شاملة].

ذلك أنّ الفاشية تقول إنّ كلّ مواطن [إيطالي] ينتمي إلى أفضل شعب في العالم، وأنّ أعضاء الحزب الفاشي هم أفضل المواطنين، وأنّ كلّ مواطن بمقدوره (أو ينبغي عليه) أن يصبح عضواً في الحزب. ولكنْ لا يمكن أن يكون هناك نبلاء دون أن تكون هناك عامة. والحقّ أنّ القائد يعرف أنّ سلطته لم تخوَّلْ له بصورة ديمقراطية، وإنّما انتُزعتْ بالقوّة انتزاعاً. ويعرف أيضاً أنّ قوّته تقوم على ضعف الجماهير؛ فهذه الجماهير هي من الضعف الشديد بحيث تحتاج وتستحق قائداً. ولمّا كانت الجماعة الفاشية منظمةً تنظيماً هرمياً (تبعاً للنموذج العسكريّ) فإنّ كلّ قائد فرعي يزدري من هم دونه وكلّ واحد من هؤلاء يزدري من هم أدنى منه. وهذا من شأنه أن يعيد تأكيد معنى النخبوية الشاملة (mass elitism).

١١- في مثل هذا المنظور يتم تعليم كل واحد أن يصبح بطلاً. وفي كل ميثولوجيا يُعدُّ البطل مخلوقاً استثنائياً، ولكنْ في الأيديولوجية الفاشية الأوروبية تُعَدُّ البطولةُ هي القاعدة. وترتبط عبادةُ النزعة البطولية بصورة وثيقة بعبادة الموت؛ وليس من قبيل الصدفة أنّ أحد شعارات حزب الكتائب الإسباني هو «يحيا الموت».

في المجتمعات غير الفاشية يقال لعامة النّاس إنّ الموت مقيتٌ ولكنْ لا بدّ من مواجهته بكرامة، ويقال للمؤمنين إنّه الطريقة المؤلمة للوصول إلى سعادة خارقة للطبيعة. وبالمقابل فإنّ البطل الفاشيّ يتوق إلى الموت البطوليّ، الذي يروَّج له باعتباره أفضل مكافأة عن حياةٍ بطولية. والبطل الأوروبي الفاشيّ يتلهّف للموت، وفي غمار تلهُّفه هذا يبعث الآخرين بصورة أكثر تواتراً إلى رحاب الموت.

١٢ - لما كانت الحربُ الدائمة والنزعةُ البطولية لعبتيْن صعبتيْن، فإنّ الفاشيّ الأوروبي يحوّل إرادته في السيطرة إلى المسائل الجنسية. وهذا هو أصل نموذج «الماشيزمو» (الذي يفترض ازدراءَ النساء، وعدم التسامح مع العاداتِ الجنسيّة غيرِ القياسية.. ابتداءً من العفّة الجنسية وانتهاءً بالجنسيّة المِثْليّة). ولأنّ الجنس لعبة صعبةٌ في حدّ ذاتها، فإن البطل الفاشيّ الأوروبيّ يميل إلى اللعب بالأسلحة. فيصبح هذا ممارسة قضيبيّة بديلة.

١٣ - تقوم الفاشية الأوروبية على شعبويةٍ انتقائية، بل يمكن الْقولُ إنّها شعبويةٌ نوعية (qualitative populism). وفي ظلّ الديمقراطية يتمتّع المواطنون بحقوق فردية، ولكنّ المواطنين في إجماليّهم ليسوا ذوي تأثير سياسيّ إلاّ من وجهة نظرٍ كميّة، إذْ يتبع الفردُ قراراتِ الأغلبية. غير أنّ الأفراد، في عُرْف الفاشية الأوروبية، لا حقوق لهم كأفراد، بل يُنظر إلى الشعب باعتباره كيْفاً، أي بحسبانه كياناً متراصاً متناغماً (monolithic) يعبِّر عن «الإرادة المشتركة».

ولأنّه لا يمكن أن تكون لِكمّ كبير من البشر إرادةٌ مشتركة، فإنّ القائد يتظاهر بأنّه المفسِّر الناطقُ بلسان حالهم. وبعد أن فقد المواطنون سلطتهم في انتخاب موكلين عنهم فإنّهم لا يتحرّكون، وإنّما هم يُستَدْعَون فحسب للقيام بدور الشعب. وهكذا فإنّ الشعب ليس إلاّ خيالاً مسرحياً فقط. ولكي يكون لدينا مثال جيّد للشعبوية الكيفية، فإننا لم نعد بحاجة إلى ساحة فينيسيا في روما أو أستاد نورمبرج، بل هناك في مستقبلنا شعبوية تلفزيونية، أو شعبوية «الانترنيت» يمكن فيها عرضُ الاستجابة الانفعالية لمجموعة مختارة من المواطنين واعتبارُهَا صوتَ الشعب.

والفاشية الأوروبية، بسبب شعبويتها الكيفية، ينبغي أن تكون ضد الحكومات البرلمانية «المهترئة». وقد كانت من أولى الجمل التي نطق بها موسوليني في البرلمان الإيطالي قوله: «لقد كان بمقدوري أن أحوِّل هذا المكانَ الأصمَّ والكئيب إلى

معسكر مؤقت لفرق المانيبل التابعة لي»؛ و«المانيبل» هي وحدة فرعية منبثقة من الفيلق الروماني التقليديّ. وفي حقيقة الأمر أنه وَجد في التوّ مأوًى أفضل لفرق المانيبل التابعة له، ولكن بعد ذلك بوقت قصير قضى على البرلمان. وهكذا فحيثما ألقى سياسيٌّ ظلال الشك على شرعية برلمانٍ ما بدعوى أنّ هذا الأخير لم يعد يمثّل صوت الشعب، فإنّ بمقدورنا أن نشتمّ رائحة الفاشية الأوروبية.

١٤ - تتحدث الفاشية لغة «النيوسپيك» (الكلام الجديد). وهذه اللغة اخترعها جورج أورويل في روايته ١٩٨٤ باعتبارها لغة «الإنجسوش» الرسمية، أي الاشتراكية الإنجليزية. ولكنْ ثمّة عناصر من الفاشية الأوروبية مألوفةٌ في أشكال مختلفة من الدكتاتوريات: فكلّ الكتب المدرسية النازية أو الفاشية تستخدم مفردات فقيرةً وتركيباً لغوياً أولياً، لكيْ تقيّد الأدواتِ اللازمةَ لتفكيرٍ مركّبٍ ونقديٍّ. ولكنْ يتعيّن علينا أن نكون على استعداد للتعرف على أنواع أخرى من «النيوسپيك» حتى وإن أخذت الشكل البريء (ظاهرياً) المتمثلَ في برنامج «الكلام [الخفيف]» (talk show) الرّائج.

***

في صبيحة ٢٧ يوليو ١٩٤٣ قيل لي إنّ الفاشية، وفقاً للتقارير التي بثّها الراديو، قد انهارت وأُلقِيَ القبضُ على موسوليني. وحين أرسلتني أمي لابتياع الجريدة رأيت أنّ الجرائد الموجودة في أقرب كشك للجرائد تحمل عناوينَ مختلفة. بل إنني بعد أن رأيت العناوين أدركتُ أنّ كلّ صحيفة تقول أموراً مختلفة!

ابتعتُ إحدى الجرائد، بصورة عشوائية، وقرأت رسالةً على الصفحة الأولى وقّعَتْها خمسة أحزاب أو ستة، من بينها: الحزب الديمقراطي المسيحي، والحزب الشيوعي، والحزب الاشتراكي، والحزب الليبرالي. وكنت قد اعتقدت حتى ذلك الوقت أنّ هناك حزباً واحداً في كلّ بلد، وأن هذا الحزب الواحد في إيطاليا هو الحزب الفاشي الوطني. وهاأنذا اكتشف أنّ بإمكان العديد من الأحزاب أن توجد في بلادي في الوقت نفسه. ولأنني كنتُ فتى ذكيّاً فقد أدركتُ، في التو، أنّ مثل هذه الأحزاب العديدة لا يمكن أن تكون قد وُلدت بين عشيّةٍ وضحاها، وأنها لا بد أنْ وُجِدَتْ لبعض الوقت كمنظمات سرية.

وقد حيّت الرسالةُ المنشورة على الصفحة الأولى نهايةَ الدكتاتورية وعودةَ الحرية: حرية القول، وحرية الصحافة، وحرية الانتماء السياسي. وكنتُ أقرأ الكلمات التالية: «الحرية» و«الدكتاتورية» و«الليبرالية» للمرّة الأولى في حياتي؛ فأحسستُ أنني بُعِثتُ إنساناً غربياً حرّاً بفضل هذه الكلمات الجديدة.

علينا أن نواصل الحذر كي لا تُنسى معاني هذه الكلمات مجدّداً. فالفاشية الأوروبية ماتزال حولنا، مرتديةً ملابس عاديةً في بعض الأحيان. وسيكون من الأيسر بالنسبة لنا كثيراً لو أنّ أحدهم ظهر على الساحة العالمية قائلاً: «أريد إعادة فتح أوشفيتز [لاعتقال اليهود] من جديد، أريد أن يعود ذوو القمصان السود للاستعراض في الميادين الإيطالية مرّة أخرى».

لكنّ الحياة ليست بهذه البساطة، والفاشية الأوروبية يمكن أن تعود تحت أكثر الأشكال براءةً، وواجبنا هو أن نحاول الكشف عنها، وأن نشير بأصبعنا إلى أيٍّ من أمثلتها الجديدة - كلَّ يوم وفي كل مكان من العالم. وإنّ كلمات فرانكلين روزفلت التي أطلقها في ٤ نوفمبر ١٩٣٨ جديرة بأنْ نتذكرها مجدّداً: «إنني أغامر بالطرح الحافل بالتحدّي، وهو القائلُ بأنّه إذا ما كفّتِ الديمقراطيّةُ الأميركيةُ عن التطوّرُ باعتبارها قوّةً حيّةً تسعى ليلاً ونهاراً بالوسائل السلمية لتحسين حال مواطنينا، فإنّ الفاشية ستزداد قوةً في بلادنا». فالحق أنّ الحرية والتحرير مهمّةٌ لا تعرف النهاية.

دعوني أختم هذا المقال بقصيدة للشاعر فرانكو فورتيني:

على حاجز الجسر،
رؤوسُ المشنوقين..
في النُّهيْر المتدفّق
بصاقُ المشنوقين..
على أحجار الأسواق،
أظافرُ مَنْ صُفُّوا صَفّاً وأُطْلِقَتْ النّارُ عليهم..
على العشب الجافّ في الأمداء الرحبة،
الأسنانُ المهشّمة لِمَنْ صُفُّوا صفاً وأُطلقتِ النّارُ عليهم.
إنّ لحمنا إذْ ينهش الهواءَ، وينهش الأحجار
يكف عن أن يكون لحماً بشريّاً.
وإن قلوبنا إذْ تنهش الهواءَ، وتنهش الأحجار
تكف عن أن تكون قلوباً بشريّة.
لكننا نظرنا في عيون الموتى
ولسوف نأتي بالحريةِ إلى الأرض.
لكنّما في قبضاتِ المَوْتى المُحْكَمة
تكمن العدالةُ التي ينبغي تعزيزُها.